



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾
أَقْرَأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ
مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

(العلق: ١ - ٥)

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا
وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

(النحل: ٧٨)

خَلَا فِيهِمُ الْإِنْسَانُ
بَيْنَ الْوَحْيِ وَالْعَمَلِ

الطبعة الثالثة
(١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م)

الكتب والدراسات التي يصدرها المعهد تعبر عن
آراء واجتهادات مؤلفيها...



المعهد العالمي للفكر الإسلامي

هيرندن - فيرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية

خلافية الإنسان

بَيْنَ الْوَحْيِ وَالْعَقْلِ

بحث في جدلية النص والعقل والواقع

د. عبد المجيد النجار

سلسلة المنهجية الإسلامية (٥)

© جميع الحقوق محفوظة

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

هيرندن — فيرجينيا — الولايات المتحدة الأمريكية

© 1413/1993 by

The International Institute of Islamic Thought

555 Grove St. Herndon, Va. 22070-4705 U.S.A.

Library of Congress Cataloging-in-Publication Data

Najjār, 'Abd al-Majīd, 1945 (1364)—

Khilāfat al insān bayna al wahy wa al 'aql: baḥṭh fī jadālīyat al naṣṣ wa al 'aql wa al wāqī' / 'Abd al Majīd al Najjār.

p. cm. 15 × 22½— (Silsilat al manhajīyah al Islāmīyah: 5.)

Originally published: Beirut: Dār al Gharb al Islāmī. 1987 with new introd.

ISBN 1-56564-001-2—

1. Man (Islam). 2. Islam and reason. 3. Islam—Doctrines.

I. Title. II. Series:

BP166.7.N36 1991 < Orien Arab >

91-38923

CIP

Printed in the United States of America
by International Graphics Printing Services

4411 41st Street

Brentwood, Maryland 20722 U.S.A.

Tel. (301) 779-7774 Fax (301) 779-0570

المحتويات

١١	مقدمة الطبعة الثانية: د. طه جابر العلواني
٢٣	مقدمة الطبعة الأولى
٢٧	مدخل إلى الكتاب

الباب الأول

الخلافة (المهمة الوجودية للإنسان) الفصل الأول: الإطار العقدي للخلافة

٣٩	تمهيد
٤٠	أولاً — ثنائية الوجود
٤٣	ثانياً — الوجود الإلهي
٤٨	ثالثاً — الوجود العالمي
٥٢	رابعاً — الوجود الإنساني
٥٢	١ — خلق الإنسان
٥٥	٢ — الإنسان والكون
٥٥	أ — وحدة الإنسان والكون
٥٦	ب — رفعة الإنسان
٥٨	ج — تسخير الكون للإنسان

الفصل الثاني: خلافة الإنسان في الأرض

٦١	أولاً — وظيفة الخلافة
٦٥	ثانياً — منهاج الخلافة
٦٥	١ — طبيعة المنهاج

٦٨	٢ — مهاج الخلافة بين الوحي والعقل
٦٨	أ — حقيقة الوحي وخصائصه
٦٨	ب — حقيقة العقل وخصائصه
٧٧	٣ — تأسيس منهاج الخلافة بين العقل والوحي
٧٧	أ — حلفية تاريخية
٨٣	ب — رأي في القضية

الباب الثاني

دور العقل في إنجاز الخلافة

الفصل الأول: دور العقل في فهم الوحي (النص)

٨٩	تمهيد
٩١	أولاً — واقع الفهم
٩١	١ — طبيعة الدور العقلي
٩٢	٢ — أسس الفهم العقلي
٩٢	أ — الأساس اللغوي
٩٣	ب — الأساس المقاصدي
٩٥	ج — الأساس الظرفي
٩٦	د — الأساس التكاملي
٩٦	هـ — الأساس العقلي
٩٧	٣ — الاجتهاد العقلي في الفهم
٩٧	أ — اجتهاد العقل في النص القطعي
٩٨	ب — اجتهاد العقل في النص الظني
١٠٠	ثانياً — البعد الرمزي لأفهام العقل
١٠١	١ — الأفهام القابلة للتغير
١٠٢	٢ — الأفهام الثابتة

١٠٣	٣ — دعوى التغير فيما هو ثابت
١٠٣	أ — تقرير الدعوى
١٠٦	ب — نقد الدعوى

الفصل الثاني: دور العقل في تنزيل الوحي (النص)

١١٥	أولاً — مفهوم التنزيل
١١٧	ثانياً — أسس التنزيل
١١٧	١ — العلم بمقاصد الأحكام
١٢٠	٢ — العلم بالواقع
١٢٢	ثالثاً — الاجتهاد في التنزيل
١٢٣	١ — الاجتهاد في تحقيق النوع
١٢٤	٢ — الاجتهاد في تحقيق الأفعال المشخصة
١٢٥	٣ — تنزيل الأحكام
١٣٣	خاتمة
١٣٧	المصادر والمراجع

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين نستغفره ونستعينه ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد خاتم رسل الله وعلى آله وصحبه ومن والاه أما بعد:

فإن هذا الدين جاء ليخرج الأمة لتكون خير أمة أخرجت للناس، لا لتكفى على ذاتها بل هي أمة مخرجة لغيرها، فكانت أمة خيرة وأمة وسطا تصلح أن تتخذها الأمم أسوة وقدوة وقيادة لها، تقوم على منهاج بين هو أحكم المناهج وأقومها وأسدّها، وشريعة هي أصلح الشرائع وأشملها وأكملها وأعظمها، وتصور متفرد متميّز عن سائر التصورات التي عرفت البشرية في تاريخها كله، تصور متميّز بخصائصه، متفرد بمزاياه ومقوماته، موضح لأهم الدعائم التي ينبغي أن يقوم عليها التصور الصحيح الذي يصلح أن يتحول إلى قوة دافعة في ضمير الإنسان قادرة على تحريكه باتجاه إيجاد وتحقيق الفعل الحضاري، وإبراز الشهود الحضاري لهذه الأمة على الدنيا كلها.

والمنهج الإسلامي في بناء الحياة فكرًا وعقيدة وثقافة وعلماً وعلاقات ومعاملات وسلوكًا وأخلاقًا وتصرفات وممارسات، هذا المنهج — بكل جوانبه — منهج رباني أوحاه الله تعالى إلى رسوله، بدأت حلقاته بالنزول منذ أن بدأ الرسل يتعاقبون على هذه الأرض يندرون أقوامهم ويهدونهم إلى صراط العزيز الحميد حتى جاء خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام بالرسالة الخاتمة، والمنهج الكامل، والسرعة التامة وأعلن للبشرية كلها ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ المائدة: ٣.

وأعلن للدنيا كلها ﴿.. إن الدين عند الله الإسلام﴾ آل عمران: ١٩، ﴿ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ آل عمران:

فالمناهج منهاج الإسلام والشرعة شرعته. وهذا المنهاج لم ينبثق عن اجتهادات بشرية أو تصورات فلسفية وإن كان الفكر البشري والاجتهاد الإنساني ضروريات لفهم هذا المنهاج وإدراك خصائصه ومقوماته ، ومعرفة كيفية تحكمه في حركة الحياة وتوجيهها. وربانية هذا المنهج أعطته جملة من الخصائص أهمها خاصية (التوازن) الشامل في سائر عناصر المنهج ومقوماته، وهذه الخاصية قد صانت المنهج الإسلامي من سائر أنواع الاندفاع والتطرف، والجنوح والانحراف، وتبرز خاصية (التوازن) في المنهج الإسلامي في مستويات عديدة، منها التوازن بين مصادر المعرفة: فالمنهج الإسلامي يقرر للمعرفة مصدرين: الوحي والوجود، ويتخذ من العقل والحواس وسائل إدراك. وقد يمثل العقل نفسه مصدرًا في بعض الأحيان لبعض أنواع المعارف، والإسلام — في شموله وتوازنه — لم يغفل مصدرًا واحدًا من مصادر المعرفة لم يعطه اعتباره، ولم يضعه موضعه اللائق به، ودرجته الجدير بها، كما لم تسمح خاصية التوازن فيه بطغيان أي مصدر على مصدر آخر فالوحي — وإن كان أوثق المصادر وأقواها — له مجالات وميادينه، ومواضع هيمنته، والكون والحياة والأحياء كذلك مصادر معرفة — بعد الوحي — لكل منها ميدانه وإلى كل مصدر من هذه المصادر وجه الإنسان لتلقي المعرفة، فهو مطالب بأن يتلقاها من كتاب الله المنزل القرآن وكتاب الله المفتوح الكون، في تناسق وتوازن لا تشوبه شوائب التنافي أو التعارض والتصادم: فاعتبار الوحي الإلهي المعجز الأصل الصادق المهيمن مصدرًا من مصادر المعرفة لا يلغي دور العقل الإنساني، ولا يعطل دور الإدراك البشري. كما أن وجود الكون لا يلغي دور العقل، بل يفتح أمامه أبوابًا للمعرفة لا يأتي عليها الحصر.

لقد ابتليت البشرية في الماضي كما ابتليت في الحاضر بركام هائل من الفلسفات والتصورات والأوهام التي جعلت منها معتقدات أثرت على توازنها في مختلف الجوانب. وقد اقتحمت تلك الفلسفات ساحة كثير من الأديان السماوية فأصابتها بكثير من الأمراض التي أفقدتها نقاءها وصفاءها وتوازنها. ولذلك استقبلت تلك الأمم الإسلام بتصوره وعقيدته ومنهجه وشرعته استقبال الأرض العطشى الهالكة للحياة فاهتزت وربت وعاد للبشرية من خلال المنهج الإسلامي توازنها واستقامتها. وبدأت مسيرة الهدى من جديد تنطلق لبناء الحياة الربانية الهادية المهيمنة لتقوم في

الوجود خير أمة أخرجت للناس، أمة الوسطية والتوازن، وتنطلق نحو بناء عالمية الإسلام الكونية ذات المنهج المتميز بربانيته وثباته وتوازنه، وواقعيته وقيامه على عقيدة التوحيد الخالص.

ولكن سنن الله ماضية في كونه وخلقه ولن تجد لسنة الله تحويلا ولن تجد لسنة الله تبديلا. فوقع في طور من أطوار التاريخ الإسلامي أن بدأت جملة من الانحرافات عن هذا المنهج الإلهي، وتغير الأمر بعد النبوة القائمة على المنهج، والخلافة القائمة على منهاج النبوة إلى فصام بين قيادي الأمة، القيادة الفكرية العلمية وقيادتها السياسية التي جاءت إثر ما يشبه الانقلاب العسكري القبلي على منهاج الخلافة الراشدة في فترة كانت الحياة الإسلامية قد بدأت تحتك بقوة ببقايا الثقافات والحضارات الآفة التي بدأ الفتح الإسلامي يعلن نهايتها.

فالفصام بين القيادتين الفكرية العلمية والسياسية العسكرية في الأمة الإسلامية أصاب (منهج الفكر الإسلامي) بالصميم حيث بدأت سلسلة من المعارك والنزاع على الشرعية بين الفصيلين القائدين استعملت فيها نصوص الكتاب والسنة، والتفسيرات والتأويلات والاجتهادات البشرية المختلفة بشكل لا عهد لمنهج النبوة والخلافة الراشدة به، ووظفت فيها مختلف الأسلحة بما فيها بقايا الشقاق التي عثر المسلمون عليها في البلاد المفتوحة. ولما اكتملت الفتوحات الأساسية الكبرى وامتدت الرقعة الإسلامية لتضم أهم مواطن الحضارات والثقافات القديمة، بدأت حركة ترجمة واسعة النطاق لبقايا تلك الثقافات وبرزت الاختلافات المذهبية، والمقالات الكلامية، والجدل الحاد بين الفرق التي لم تستطع أن تهتدي لبناء الفكر الاجتماعي والمؤسسات القادرة على امتصاص ونفي أسباب الصراع الفكري من داخل الأمة؛ فبدأت بعض قيادات تلك الفرق الثابتة تستدعي الفلسفة الإغريقية والوثنيات الرومانية والمباحث اللاهوتية المترجمة إلى ساحة الصراع والجدال بين المسلمين، وفن بعض من عُرفوا بعد ذلك بفلسفة الإسلام ببقايا الفلسفة الإغريقية وبخاصة شروح فلسفة أرسطو الذي لقبوه بـ «المعلم الأول» وضموا إلى بحوثهم ودراساتهم الألوهية والنبوة، والخلق، بل لقد بذلت جهود هائلة من بعض هؤلاء للتوفيق بين شروح الفلسفة الإغريقية وعناصرها الوثنية وبين المنهج الإسلامي والتصور الإسلامي وعقائد الإسلام، غافلين أو

متغافلين عن أن الفلسفة الإغريقية نشأت في وسط وثني مشحون بالأساطير، واستمدت جذورها من هذه الوثنية ومن تلك الأساطير، وأن هذه الفلسفة مسؤولة إلى حد كبير عن إفساد المسيحية وتحريفها بعد أن خالطتها وأن الشُّراح المسيحيين ضموا كل ذلك التراث الوثني إلى المسيحية بعد أن ألبسوا أولئك الفلاسفة ثياب التدين والتوحيد. وإذا ببعض من عرفوا بـ «فلاسفة الإسلام» لم يكفهم أن يمنحوا أرسطو لقب «المعلم الأول» بل حاولوا التوفيق بين عناصر العقيدة الإسلامية وآراء ومذاهب أولئك الذين سموهم بالحكماء «ولست أدري إذا كان أرسطو يلقب بالمعلم الأول لهؤلاء فما هو موقع رسول الله ﷺ منهم! أيعَدُّونه معلماً ثانياً أو ثالثاً؟» لقد ترك الإغريق أسطورة وثنية حول قضية المعرفة تركت بصماتها على فلسفات كل أولئك الذين تأثروا بفلسفتهم، تصور تلك الأسطورة الإغريقية كبير الآلهة (زيوس) غاضباً على الإله (برومتيوس) لأنه سرق النار المقدسة أي (سر المعرفة) وأعطاه للإنسان من وراء ظهر كبير الآلهة الذي لم يكن يريد للإنسان أن يعرف لكلاً يرتفع مقامه فيهبط مقام «كبير الآلهة» ويهبط معه مقام «الآلهة» كلهم، ومن ثم أسلمه إلى أفضع انتقام وحشي رهيب^(١).

كما روى العبرانيون أسطورة مماثلة حول الصراع بين الإنسان والإله على المعرفة. فالفلسفات القديمة ووريتها الفلسفة الغربية المعاصرة، فلسفة صراعية لا تعرف التوازن بأي شكل من الأشكال، بل الصراع والثنائيات المتصارعة المتحاربة دائماً سداها ولحمتها.

فالوجود في مذهب أفلاطون طبقتان متقابلتان: طبقة العقل المطلق، وطبقة المادة أو «المهيولي»، والقدرة كلها من العقل المطلق، والعجز — كله — من المهيولي. وبين ذلك كائنات على درجات تعلق بقدر ما تأخذ من العقل، وتهبط بقدر ما تأخذ من المهيولي. فالهيويلي مقاومة للعقل المجرد، وليست موجدة بمشيئة من العدم^(٢). والصراع بين العقل والمادة من ناحية وبين العقل والآلهة من ناحية

(١) حصائص الصور الإسلامي لسيد قطب. دار إحياء الكتب العربية/ عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٦٥

(٢) المصدر نفسه وكتاب (الله) للعقاد، ص ١٣٧.

أخرى لا ينتهي. وقد دخلت هذه التصورات الخاطئة ساحة الفكر الإسلامي فإذا بمعادلة (التوازن) بين الوحي والعقل تضطرب في ذلك الوقت المبكر من تاريخنا وإذا بنا نرى بعض الفرق تنقسم بين محقّر للعقل، مقل من شأنه، محجّم لدوره وبين مبالغ في تقدير طاقاته وقدراته، وطفى الصوتان المرتفعان على صوت «الوسطية الإسلامية الجامعة»^(٣) التي جمعت بين (النقل والعقل) بتوازن عجيب جعل كلاً منهما ضرورياً للآخر ومكمّلاً لدوره.

فلقد تفرد المنهج الإسلامي بهذه النظرة المتوازنة التي جعلت «النقل» يخاطب «العقل» ويرتاد له المواطن التي لا يُحسن ارتيادها ولا يملك أدواتها من عالم الغيب الفسيح. وجعلت «العقل» يعقل النقل ويتفهمه، ويستدل له، ويرتاد له أفضل سبل التطبيق والتنزيل على الواقع فلا أحد منهما يمكن أن يكون بديلاً للآخر، ولا أحد منهما يمكن أن يغني عن الآخر. وكل منهما من عند الله — تعالى — فالنقل هبة الله تعالى للبشرية ليهديها سبلها ويخرجها من الظلمات إلى النور، والعقل — هو الطاقة المستقبلية للوحي القادرة على تلقيه وفهمه، والاستفادة به وتنزيله على الواقع.

لقد حرص الإسلام أشد الحرص على حفظ العقل البشري وتربيته وحدد له مجالات النظر ليصون طاقاته أن تبدد فيما لم تخلق له من البحث في الغيبات التي لا سبيل له إلى الوصول إليها إلاّ بنقل ثابت صحيح، ووضع له المنهج الصحيح للنظر^(٤). وقد ضيق الإسلام مساحة الغيبات التي طالب الإنسان بالإيمان بها إلى حد كبير، وعرض لما عرض له منها بشكل لا يمكن أن يأباه العقل الإنساني أو يستعصي عليه، ثم قاده إلى الإيمان بذلك الغيب ليطمئن قلبه بالإيمان، ويتجه بكليته بعد ذلك إلى عالم الشهادة ينزل عليه هداية الوحي، ويبنى فيه الحضارة، ويحقق العمران، ويقوم بمهام الاستخلاف والأمانة.

ولكن الإنسان ضعيف، ومن ضعفه أنه يفتن بطاقاته وقدراته، «ولقد فتن الإنسان بعقله، إذ استطاع أن يميز بين الأشياء، ويدرك خواصها ويستنبط فوائدها،

(٣) المصطلح استعمله د. محمد عمارة، راجع كتابه «عالم المنهج الإسلامي»، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فريجينا، ١٩٩١، ص ٧٧.

(٤) راجع فصل «تربية العقل» من كتاب منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب. دار الشروق الطبعة الثانية عشرة، ١٩٨٩، ج ١، ص ٧٥-١٠٣.

ويشكل صورًا جديدة من المادة التي وجد نفسه محاطًا بها على ظهر الأرض أو في السموات^(٥)، أو بناء أفكار وتصورات.

ويصور ابن حزم فتنة الأقدمين بالعقل فيقول: «هما طرفان: أحدهما أفرط فخرج عن حكم العقل. والثاني قصر فخرج عن حكم العقل، ولا نعلم فرقة أبعد من طريق العقل من هاتين الفرقتين، إحداهما التي تبطل حجج العقول جملة، إن صحة ما أوجبه العقل عرفناه بلا واسطة وبلا زمان ولم تكن بين أول أوقات فهمنا وبين معرفتنا بذلك واسطة البتة^(٦)».

ويحاول الإمام أبو حامد الغزالي تصوير المسألة كما هي في وقته فيقول: فإن قلت: فما بال أقوام يذمون العقل والمعقول؟ فاعلم أن السبب فيه أن الناس نقلوا اسم «العقل والمعقول» إلى المجادلة والمناظرة بالمناقضات والإلزامات وهو صنعة الكلام فلم يقرروا عندهم أنكم أخطأتم في التسمية إذ كان لا يتمحي عن قلوبهم بعد تداول الألسنة به ورسوخه في القلوب فذموا «العقل والمعقول» وهو المسمى به عندهم. فأما نور البصيرة التي بها يعرف الله تعالى، ويعرف صدق رسله فكيف يتصور ذمه وقد أثنى الله — تعالى — عليه وإن ذم فما الذي بعده يحمده؟ فإن كان المحمود هو الشرع فقيم عليك صحة الشرع؟ فإن علم بالعقل المذموم — الذي لا يوثق به — فيكون الشرع أيضًا مذمومًا ولا يلتفت إلى من يقول: إنه يدرك بعين اليقين ونور الإيمان لا بالعقل، فإننا نريد بالعقل: ما يريده بعين اليقين ونور الإيمان، وهي الصفة الباطنة التي يتميز بها الآدمي عن البهائم حتى أدرك بها حقائق الأمور: وأكثر هذه التخييلات إنما ثارت من جهل أقوام طلبوا الحقائق من الألفاظ لتخبط اصطلاحات الناس في الألفاظ^(٧).

وهكذا انقسم الناس إلى فرق في هذه القضية، واضطربت هذه الحلقة الأساسية من حلقات المنهج الإسلامي. ووقف فريق خلف النقل يتترسون به ضد فريق آخر وقف وراء العقل يجادل عنه وينافح. واستدرج العقل المسلم إلى متاهات

(٥) مهج التربية الإسلامية لمحمد قطب ١/٧٦.

(٦) إحكام الأحكام لأس حزم

(٧) إحياء علوم الدين للغزالي. دار الشعب، القاهرة (د.ت)

كان الله سبحانه وتعالى قد أنقذه منها، وجاء فريق حشوي يتشبث بألفاظ النصوص لا يستعين على فهمها بغير القاموس اللغوي، وصار العقل عنده متهماً في كل شيء حتى لم تعد له — في نظره — وظيفة أو دور.

وفريق حكم العقل وافتتن به وتجاوز به حدوده، فأعطاه صلاحيات واسعة في الحكم على الأشياء قبل الشرع وبعده، وأغرق في فرضيات لم يألفها العقل المسلم فتكلم في فرضية «شكر المنعم» في حالة عدم وجود الشرع أيكشفها العقل ويوجبها أم لا؟ وفي تكليف المعدوم وفي خلق القرآن ومصدر الحكم على الفعل الإنساني بالحسن أو القبح أهو الشرع أم العقل؟

وافترض وقوع التعارض بين النقل والعقل وقدم العقل فريق وقدم النقل فريق آخر، فنشأ لون جديد من البحوث والدراسات يقوم على تأويل ما توهم التوهمون تعارضه أو تناقضه مع العقل من نصوص الكتاب أو السنة في «تأويل مشكل القرآن» وفي «تأويل مشكل الحديث»، وكتب في بيان ما بين الشريعة والحكمة جملة من الاتصال، وكتب في «درء تناقض العقل والنقل» ولكن المسألة كانت قد تحولت إلى قضية من قضايا الفكر والعقل المسلم تحتاج بالإضافة إلى البحث العلمي وسائل تربوية تقتلع آثارها من العقل المسلم وتعيد تربيته بشكل يضمن طهارته من آثارها المدمرة، لكن ذلك لم يتم وبقي ملف هذه الحلقة الخطيرة مفتوحاً قابلاً للتوظيف السلبي في كل وقت.

وحين برزت فتنة الإنسان الحديث بعقله في عصرنا هذا، حين اشتد عجبه بنفسه وغروره بقدرته وهو يرى المخترعات الحديثة والكشوف العلمية، وكيف استطاع تفجير الطاقة الذرية وبناء الصواريخ وغزو الفضاء أصابه المس الذي أصاب (نيتشة) حين أعلن عن موت الإله ومولد الإنسان الأعلى (السوبرمان)^(٨).

ولقد كانت فتنة عمياء جعلت الإنسان المعاصر يؤله عقله، ويسلم له كل مقاليدته ليبنّي عقلانيته اللادينية الضالة. صحيح أن العقل قادر على الكشف العلمي والاختراع، وقد يستطيع التمييز بين الخير والشر والنفع والضرر، ولكن هل يستطيع

(٨) حقائق التصور الإسلامي لسيد قطب ٧.

أن يحدد بدقة وحيدة عناصر الحق والخير والجمال وطرق الوصول إلى كل منها مستقلاً دون موجه أو معين؟ الحق لا، إنه بحاجة ماسة دائمة إلى العون الخارجي يأتيه من وحي صادق يحيط بما لم يحيط بعلمه، ويوجهه إلى ما فيه خيره وصلاحه ورشده.

ولقد كانت «فتنة العقل» المعاصرة أعتى وأشد من الغابرة حيث صادفت من المسلمين حالة ضعف، ومن حضارتهم حالة أفول، ومن فكرهم حالة أزمة وجهود وركود فاستطاعت أن تحتاج عامة متعلميهم وجمهرة مثقفهم لتضعهم في معسكر جمحافل التغريب لأمتهم، ولقد حاول كثير من الغيارى والمخلصين الوقوف بوجه ذاك التيار، لكن محاولات الدفاع الجزئي كثيراً ما تجر إلى أخطاء أو انحرافات جديدة فبدلاً من تأكيد مبدأ التوازن وعرض المنهج الإسلامي بشموله وعمومه وإكاله وتوازنه وقاعدته العقيدية، وتوكيد منطلقاته ومسلماته وبيان غاياته انصب الدفاع على توكيد أهمية العقل، وتأويل أي نص حاول المغرضون أن يبينوا تعارضه، أو نفى صحته أو تعسف حمله على أبعد المحامل أو نحو ذلك مما يجعل الأمر كأنه معالجة مرض بدواء له مضاعفات تؤدي إلى أمراض أخطر وأعتى وأشد.

لقد حاول كثير من حملة الفكر الإسلامي في الماضي — نسأل الله لهم المغفرة — معالجة هذا الأمر والرد على من اتهموا الإسلام بمثل التهم الموجهة إلى الكنيسة من التقليل من شأن العقل وغمطه حقه، وإعلاء شأن الخرافة، وذلك حين واجهوا بيئة فكرية جامدة رفضت الاجتهاد وتشبثت بالتقليد، وأنكرت على العقل دوره وأخذت تعتبر الاجتهاد تهمة وإبداء الرأي أو الاجتهاد اقتحاماً للنار، وهدماً للدين. وكانت جيوش الأعداء تسرح وتمرح في بلاد المسلمين فيقابلهم العلماء بقراءة سورة يس وقراءة صحيح البخاري إذا لزم الأمر، في المساجد وعند أضرحة الصالحين؛ أما مواجهة العدو بالجهاد والاجتهاد فذلك قل المنادون به أو الداعون له.

وفي الوقت نفسه كان (العقل) في أوروبا يُعبد ويُتخذُ إلهاً خاصة بعد الفتوحات العقلية التي جعلت ملوك أوروبا الذين كانوا يحتمون بسلطين آل عثمان ويدفعون لهم الجزية يمتلكون البحر والبر وتصبح كلمتهم نافذة على الجميع ومنهم حكام المسلمين وديارهم. لقد كانت الفلسفة العقلية تؤله العقل وتنادي بوجوب فتح معابد جديدة للإله المبدع الجديد — العقل — تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وفي الوقت

نفسه تتعرض العقائد الإسلامية والتصور الإسلامي والمنهج الإسلامي لأشرس الحملات ويؤتّم الإسلام عقيدة وشريعة ومنهجاً بأنه المسؤول عن تخلف المسلمين، وتعطيل عقولهم وجهودهم^(٩)، وكان العلماء المنصرفون إلى فقه الحيف والنفس وسدنة الأضرحة يؤكدون بتصرفاتهم ومقولاتهم هذه المعاني. في هذه الفترة الحرجة بكل تلافيها، حاول كثيرون أن يواجهوا تلك الحالة بالتأكيد على اهتمام الإسلام بالعقل وبيان دوره في سائر جوانب الحياة الإسلامية واعتبار الاجتهاد العقلي حلقة من أهم حلقات المنهج الإسلامي وفي غمرة هذه المحاولة، وفي حمى تلك المعركة الدفاعية اضطر بعض هؤلاء — عفا الله عنهم — أن يجعلوا العقل زئداً للوحي، وأعلن بعضهم أن النص إذا تعارض مع العقل فيجب تأويل النص لينسجم مع العقل فوق هذا البعض بما وقع فيه الطوفي وغيره من تقديم المصلحة على النص والعقل على النص، ووقعوا في تأويلات كثيرة كما تجد بعض ذلك في تفسيره لبعض قضايا الغيب كالجن والملائكة وغيرها. وقد تأثر تفسير الشيخ محمد عبده لجزء عم بهذه النظرة تأثراً واضحاً، كما تأثر به تفسير تلميذه المغربي في جزء تبارك حتى صرح مرات بوجود تأويل النص ليوافق مفهوم العقل، فأى عقل هذا الذي يحاكم النص اليه^(١٠)؟

إن المنهج الإسلامي كل لا يتجزأ وحلقاته متداخلة لا متقابلة، والاستغراق في الجزء يلهي عن الكل، وهناك ألوهية وعبودية تفرد الله تعالى بها وبسائر خصائصها. وعبودية ومخلوقية يشترك فيها كل من عده وما عده والعلاقة بين الله وخلقه علاقة الخالق بالمخلوق والوحي وحيه، والإنسان خلقه والعقل بعض أدواته ووسائله فهو مناط التكليف والفهم والإدراك والتنزيل في الواقع، والنص ضابط وموجه، ومرشد ومهيمن، ولا يتصور وقوع تعارض بينهما في الواقع ونفس الأمر، بل التعارض قد يقع حين يقع في ذهن الإنسان وعقله لنقص في استيعابه أو غفلة عن جانب، أو نقص في الوسائل والأدوات. واستكمال ذلك من شأنه أن يزيل التعارض الموهوم أو المفترض. وأيا كان فإن النص يبقى هو المرجع والأساس. ولا بد من حسن

(٩) المصدر نفسه، ص ٢٩. وينظر نقد سيد قطب لمحمد إقبال — رحمه الله — أيضاً.
(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٩.